

أسطورة الخطيئة في رواية نزيف الحجر لإبراهيم الكوني

د/ صالح ولعة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

والاجتماعية جامعة باجي مختار - عنابة

المُلخَص:

Résumé:

Le Sahara a retenu un intérêt particulier dans le monde romanesque de Ibrahim Kouni, par son calme et sa colère, sa netteté et son trouble, sa sécurité et sa trahison. Tout cela a laissé son effet sur les structures narratologique, y compris les personnages, les effets, ainsi que le langage.

On peut remarquer, aussi, la présence courante des mythes dans les romans de Kouni, ainsi dès que l'un des mythes apparaît, un autre se dissipe et disparaît.

Les personnages avec leurs histoires désertiques sont omniprésents, et lorsque les relations entre humain sont brisées, ces personnages peuvent plus communiquer qu'avec les animaux et les différents phénomènes de la nature.

تستأثر الصحراء باهتمام منقطع النظير في عالم الكوني الروائي، بهدوئها وغضبها، بصفائها وعتمتها وأمانها وغدرها يترك أثره في الأبنية السردية، بما في ذلك الشخصيات والأحداث واللغة، كما أن تعود الأساطير في روايات الكوني، فما أن تتوهج أسطورة إلا وتتطفئ أخرى، وتظهر الشخصيات حاملة حكاياتها الصحراوية معها أينما تذهب، عندما تتعدم صلة الإنسان بالإنسان، فلا يجد أمامه إلا التواصل مع الحيوان وجميع المظاهر الطبيعية.

منذ أن عرفنا وصف جورج لوكا تش للرواية بأنها ملحمة العصر الحديث، بدا وكأن السرد العربي اقتنع بهذا الوصف حتى الثمانينيات، إلا أن تكون وصفا لمخاض المجتمع العربي الحديث في مدته الحديثة، أي وصف للتشكيلات الاجتماعية المترفة. إلى أن برزت بعض الأعمال الروائية التي نقلت الرواية العربية إلى أطراف المدينة مع عبد الرحمن منيف، ثم أعماق الصحراء مع إبراهيم الكوني، فلم تعد الرواية فنا مدنيا فقط، بل انتقلت إلى أعماق الصحراء تصور شخصيات موجودة على حافة الحياة دائما وكأنها في صراع أبدي مع الموت، فكل في المجتمع الصحراوي معرض للدمار والخطر، إن لم تكن قاتلا فأنت مقتول بالضرورة، حياة أو موت.

ويرجع ابن خلدون اختلاف الأجيال في أحوالهم إلى اختلاف نحلهم في المعاش، ويصنفهم إلى مجتمع ضروري وآخر حاجاتي وثالث كمال. فالبدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم العاجزون عما فوقه، وإن الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم، ولا شك أن الضروري أقدم من الحاجاتي والكمالي سابق عليه لأن الضروري أصل والكمال فرع ناشئ عنه ⁽¹⁾

تسير روايات الكوني في هذا الاتجاه وتعكس مقولة لوكاتش لأنها تريد أن تكون تاريخا لمجتمع ضروري يقاوم الموت.

يقوم السرد في عدد كبير من روايات إبراهيم الكوني بدمج نبذ متناثرة من الأخبار والوقائع والحكايات الأسطورية والخرافية، وجملة من المأثورات الشفوية القبلية أو الدينية في الصحراء. فثمة تركيب متعدد لكل شيء وإدراجه في سياقات سردية خاصة، بعالم تخيلي صحراوي كبير تمكنت المدونة السردية للكوني. ترتيب معالمه وعناصره، وهو عالم مختلف عن سواه من العوالم الروائية التخيلية السابقة في الرواية العربية. فهناك صراع دائم مع المجهول والموت، وبحث في فضاء الصحراء متعدد الأبعاد يضيف على شخصيات نوعا من العزلة والانفراد.

تستأثر الصحراء باهتمام منقطع النظير في عالم الكوني الروائي، فهدوءها وغضبها، وصفائها وعمتها وأمانها وغدرها يترك أثره في الأبنية السردية، بما في ذلك الشخصيات والأحداث واللغة، كما أن تعدد الأساطير في روايات الكوني معتاد،

فما أن تتوهج أسطورة إلا وتتطفئ أخرى وتظهر الشخصيات حاملة حكاياتها الصحراوية معها أينما تذهب، عندما تتعدم صلة الإنسان بالإنسان، فلا يجد أمامه إلا التواصل مع الحيوان وجميع المظاهر الطبيعية.

لكن، ورغم تعدد الأساطير في روايات الكوني، فإنها تجتمع حول محور أساسي يتمثل في العلاقة الغامضة بين الإنسان والإنسان، أو بين الإنسان المتوحد والحيوان، ويذهب عبد الله إبراهيم إلى القول « بأنه لو رتبنا هذه الأساطير وفق أنساق محددة لشكلت مجموعة ما يمكن الاصطلاح عليه "ميثولوجيا الطوارق: ميثولوجيا متنوعة العناصر ثبتوا فيها الإنسان بهوموم وحيرته وتطلعاته الموقع الأول، ذلك الذي لا يجد أنيسا فيختار مضطرا الحيوان رفيقا له، يبته لواعجه وعزلته، ثمة تساوق مثير للانتباه في مستوى القيمة الممنوحة للحيوان والإنسان في روايات الكوني » (2).

لا تخرج رواية " نزييف الحجر " عن هذا الاهتمام، إذ يشير السرد منذ البداية إلى ذلك المكان المتوحش المنعزل، ومع الإشارة إلى المكان تبرز إلى المساحة السردية شخصية أسوف(*)، ذلك الراعي البسيط الذي اتخذ الفقار والكهوف مأوى له وعاش حياته منعزلا منفردا تماهى مع الحيوانات في الصحراء، توحد مع صخورها ورمالها وجبالها في وحدة كونية فريدة من نوعها. تظهر وجهة نظر الشخصيات المندمجة بالمكان وكأنها تقف على حافة الحياة دائما، وكأنها في صراع أبدي مع الموت، تسعى دوما إلى الحفاظ على استمرار حياتها وابتعادها عن شبح الموت والفناء.

يشير السرد في البداية إلى أسوف وهو يتابع قطيعه ويتجه إلى الصلاة، مستغرقا في عزلته الصوفية إلى حد يجهل أنه كان يتجه بصلاته نحو الصنم الحجري لا نحو الكعبة « ولم يدر أسوف أنه أخطأ الاتجاه، فلم يوجه ركعاته نحو الكعبة، وإنما نحو الصنم الحجري المنتصب فوق رأسه في قعر الوادي العميق » (3).

تقع هذه الصخرة الكبيرة في نهاية سلسلة الكهوف كحجر الزاوية لتواجه الصحراء القاسية عبر آلاف السنين وقد زينت بأبدع رسوم إنسان ما قبل التاريخ،

وعلى طول الصخرة الهائلة ينهض الكاهن العملاق، يخفي وجهه بذلك القناع الغامض ويلامس بيده اليمنى الودان (*) الذي يقف بجواره مهيباً يرفع رأسه مثله مثل الكاهن نحو الأفق البعيد، حيث تشرق الشمس وتسكب أشعتها في وجههما كل يوم « (4).

بهذا الوصف الطقسي يختزل الكاهن الأكبر والودان المهيب تاريخ الصحراء ويعودان به إلى مطلع أول شمس لبداية العالم. تشير صخرة متخدروش إلى زمن البدايات السعيدة، زمن الأسلاف الأوائل، وفرد وسهم المفقود، وأمام هذه الصخرة المقدسة يسترد أسوف من خلال عزلته أسطورة الولادة الكونية الأولى ويمتزج بشخصها.

في مثل هذا المكان، ينفذ الراوي العليم دائماً إلى وعي شخصياته، وأحياناً إلى وعي الأشياء والحيوان، يراقبهم بعدسته، وينتقل بينهم مثلما ينتقل المصور بآلة تصويره، وهذا ما يجعل بناء روايات الكوني متشابهة من الناحية البنائية، لكن معناها الدلالي والرؤيوي هو الذي يضفي عليها بريق عالم مختلف يسهم في جعلنا نحن القراء نعيش أجواء عالم غريب وعجيب « عالم يستعيد من خلال البدوي مجد أسلافه الأسطوريين في الصحراء القاحلة، وبهذه الاستعادة الوهمية يعود إلى زمن الأوائل التي يعده بالخلود والرخاء. إن الجنة هي الفردوس الخفي الذي يهبه له الجن والأسلاف الأسطوريين إنقاذاً له من وحشة الصحراء وموتها المرير. إذ « تهدي أرواح الأسلاف المكنونة في الجن أحفادهم العائدين إلى مشهد القرابة العائلية (جنة) وهمية حلمية وفردوساً مفقوداً يعيدهم إلى لحظة البراءة الأصلية، في زمن الخلق الأسطوري، وكأن هذه العودة بعث جديد وميلاد ثان للوليد القديم » (5).

يشير السرد منذ البداية إلى أماكن، هي جبال "مساك سطفت" و"مساك ملت" ومناطق "تاسيلي" و"تامانراست"، ومدن مثل "كيكتو" و"أغادير" و"كانو"، وتركز حبكة هذه الرواية على نتائج ذلك التمزق في التوازن الدقيق بين البشر والطبيعة.

وفي هذه الأجواء الأسطورية وعند صخرة متخدروش العظيمة يلتقي أربع شخصيات منهم أسوف المنتمي إلى المكان والمتوحد به، كان أول زائر لعزلة أسوف وفردوسه هو عامل الآثار الإيطالي المستغرق مثله في هذه الميثولوجيا السحرية في

البحث عن الطفولة البشرية، فكثيرا ما سأل نفسه عن سر اهتمام النصارى بالرسوم القديمة، وتوصل إلى قناعة تقول إن النصارى يحجون إلى أوثان متخندوش لأنهم يعتقدون الديانة القديمة نفسها، « يقفون أمام العملاق المقنع كما يقف المسلمون بين يدي الله » (6).

وهنا يشير السرد إلى علاقة الجن بالأسلاف، وقد تركزت هذه العلاقة عند أسوف منذ أن قالت له، بعد إلحاحه المتكرر على معرفة حقيقة الجن «إن الجني المقنع جده أيضا» (7).

وبهذا يستعيد أسوف لاشعوريا الاعتقاد القديم بأن الجن ليسوا كائنات خرافية، بل هم أرواح الأسلاف، وقد انتقلت من عالم الأرض إلى عالم الخفاء. وتعدّ وفكرة كمال البدايات من الأفكار المفضلة في الأنثروبولوجيا الحديثة، يصفها "مرسيا إلياد" بأنها « تعبير عن خبرة دينية أكثر حميمية وأبعد غورا، تغذيها الذكرى الخيالية لفردوس مفقود لغبطة سبقت الوضع البشري الراهن، ويلعب هذا السيناريو الأسطوري الطقس في تجديد العالم دورا هاما إلى أبعد حدود الأهمية في تاريخ البشرية » (8).

في رواية " نزيف الحجر " تظهر مثل هذه المفارقة المكانية أيضا، فقد قتل والد أسوف الودان بدافع الجوع، فكانت النتيجة أن قتل الوالد من قبل ودان آخر، بعد أن تقطع الميثاق المقدس بين الودان والأب. وبدوره يقرر الابن أسوف أن يحنث بهذا الميثاق، ويصيد الودان، وينجح فعلا في رصد ودان يعلق في رقبتة حبلا، وهو يرجو أن يفلح في اصطياده، لكن الوعل الجبلي الذكي أدرك أن الموت أصبح أكيدا إذا بقي في السهل، فيسحب أسوف إلى حافة الجبل ويرمي، ويكتشف أسوف أنه سقط على صخرة نائثة في سفح الجبل، وما من أحد يستطيع إنقاذه، الجبل فوقه، والوادي تحته، إذا رمى نفسه مات، وإذا بقي في مكانه مات. وفجأة يتدلى أمامه حبل من قمة الجبل، يتناوله بهدوء ويصعد إلى الحياة ليجد أن الودان الذي حاول قتله بحبل هو نفسه الذي أنقذه بالحبل نفسه.

فقد قضى أسوف طفولته الأولى في فردوس الأب الفعلي، لكن موت أبيه هو الذي أدى به إلى البحث عن فردوس رمزي، يواصل فيه طفولته، فكان التحرر من

سلطان أبيه الفعلي يمر حتما عبر السعي إلى صيد الحيوان الذي حذره والده من صيده، من دون أن يفسر له سر تقديس الطوارق لهذا الحيوان. لكن بعد تجربته الشاقة مع الودان، قطع على نفسه وعدا بعدم التعرض له واصطياده، وأصبح يعيش حالة من الانجذاب والهستيريا، بعد أن عاش تلك المفارقة القاسية التي يعيشها الإنسان البدائي، أن يكون في وحدة كونية مع الحيوان وأن يقتله في الوقت نفسه، ولذلك وبدافع من هذا الاغتراب الطبيعي، يتشرد في المفاوز والصحاري والكهوف.

– الميلاد الجديد:

بعدما خاض أسوف تجربته القاسية مع الودان، قطع عهدا على نفسه بعدم اصطياده أو أكل لحم أي حيوان، فكان الميلاد الجديد لأسوف بعد أن عاش تجربة ما بين الموت والحياة. ذلك أن في لحظة السقوط إلى الهاوية البعيدة، توقف الزمن وتوقفت الحياة، لقد حل الموت، ولا أحد يعرف كم استغرق موته، لكن الودان يسحبه إلى الأعلى، لقد بدأ ميلاده الثاني، لكن ليس من رحم أمه، بل من رحم الهاوية.

فحين يتحدث ابن خلدون عن النسب في المقدمة، يذكر أنه أمر وهمي بمعنى أنه رمزي، هذه الأخوة الرمزية أكملت صورة المشهد العائلي وعلى أخيه الودان إذن أن ينفذه. ومع الميلاد الجديد، يستبدل أسوف أبا بأب ويبلغ الاندماج أقصاه بين أسوف والودان، إذ يقع كل منهما تحت طائلة دين للآخر لأنه يمنحه الحياة، يقول دوران «في صورة الابن تظهر توجهات السيطرة على الزمن من خلال رغبة الأهل في استمرار النسل، فالابن هو تكرار الذرية عبر الزمن أكثر من مضاعفة إحصائية لهم، من المؤكد أنه يوجد في الأساطير مضاعفة أبوية، مضاعفة الأب الحقيقي بالأب الأسطوري، حيث يكون الأول من أصل متواضع، والآخر من أصل إلهي نبيل، الأول هو أب مزيف مهمته تأمين الغذاء، بينما الثاني هو أب حقيقي» (9).

وهكذا يصير عند أسوف والدان، أب فعلي هو والده الذي أنجبه، وأب رمزي هو الودان، وكان قد شعر قبل ذلك بأنه سيفقد أباه الفعلي حين أخبره قائلا «أنا أخاف الودان لم يخطئ في إحساسه، نهايته كانت على يديه» (10).

أما بعد هذا الميلاد الجديد، فقد أصبح الودان نفسه أباه الأسطوري والرمزي، ولذلك قرر الامتناع نهائيا عن كل اللحم. فالانتساب إلى الحيوان والاتصال به عبر أمشاج طوطمية سحرية غامضة، انتماء ثقافي كالانتساب الديني أو القبلي أو العرفي... فعندما أنقذ الودان أسوف من الموت، صرخ أسوف بصوت مخنوق كأنه يناجي ربه « أنت أبي، لقد عرفتك، انتظر، أريد أن أخبرك... »⁽¹¹⁾. يعد المذهب الحيوي القائم على الاعتقاد بحيوية الأشياء من أقدم أشكال الاعتقاد التي عرفها الإنسان.

وتلعب فكرة الروح في المذهب الحيوي دورا كبيرا، وهي عنصر أزلي لا يفنى ولا يموت بموت الجسد الذي يحتويه، بل تنتقل إلى أماكن أو أجساد أخرى، بمعنى آخر تذهب وتتقمص الطبيعة ضمن تجربة مميزة، فينتقل الروح بعد فناء الجسد إلى جسد آخر قد يكون الحيوان، أو الحجر أو النبات.

ومن جهتها ترى العقيدة الطوطمية أن طوطمها يدافع عن القبيلة، كما ينذر أصحابه بالخطر قبل وقوعه، وينسب المذهب الطوطمي أصل الإنسان بإرجاعه إلى السلالة الحيوانية لأنه يعتقد بوجود علاقة ما بين كل قبيلة وحيوان معين، وهي كونه جدّها الأكبر تقدسه وتقّده صفاته، فقد أصبح الودان، في رواية نزييف الحجر، ينقاد إلى أسوف ويرتّع بجواره في قطعان كبيرة منذ أن توقف عن أكل اللحم منذ حادثة الهاوية « منذ أن رأى أباه في عيني الودان العظيم الذي أنقذه من الموت »⁽¹²⁾.

وللمعتقد الأسطوري دوره في تشكيل بعض الأفكار والصور عن أنماط معينة من الكائنات والحيوانات التي تحاط بها هالة من الرهبة والغموض التي ترمز إلى دلالات عميقة ورموز غامضة.. فبعد أن ألح أسوف كثيرا على والده لمعرفة سبب رفضه صيد الودان، ولم يجد عند أبيه غير الصمت الحزين، تولت الأم الإجابة « أبوك لا يريدك أن تسفك دم الودان لأنه نذر نذرا من زمان قبل أن تولد [...] كان يصطاد في سفوح جبال (أيتيس)، فزلقت رجله ووجد نفسه معلقا بين السماء والأرض [...] فانتشله نفس الحيوان الذي كان يقاتله وينوي قتله من الهلاك.. لقد نذر ألا تقرب من الودان ... »⁽¹³⁾.

وقد تأكد الاعتقاد بهوية الجن عند أسوف عندما صارحته أمه بأنهم أهل الصحراء الأوائل « أهل الصحراء الحقيقيون هم الجن... في الزمن القديم لم تكن الصحراء مسكونة إلا بهم، الجن هم أهلها الأوائل، ثم جاءت قبيلة الإنس ونزل أجدادنا ضيوفا عند أجدادهم، وجدوا الصحراء آمنة ومسالمة وصالحة للسكن فطاب لهم المقام»⁽¹⁴⁾. فالجن هم الأسلاف الأسطوريون لأهل الصحراء والفردوس المفقود هو الزمن الأول الذي لا يستعاد إلا بطقوس تكريس ضرورية. والجن في تصور البدوي يأكل ويشرب ويلعب ويتكلم ويتزوج ويطلب بالثأر، أي يعيش حياة بشرية، لكن كل ذلك يحصل في الخفاء. فكان تقديس أسوف للوادي والصخرة متخندروش شكلا من أشكال تكرار الطقوس تسمح له بالخروج من الزمن الواقعي وولوج زمن الأسلاف ليجي بصوره المهد العائلي القديم، وتكون مكافأة الأسلاف لأحفادهم بحلولهم في عائلتهم الرمزية. وعندما التقى قابيل أسوف أول مرة سأله قائلا «أنت الجني أسوف الذي أثر العيش في الخلاء الحالي»⁽¹⁵⁾.

وكان أول مسلم يزور المنطقة هو قابيل، بحثا عن لحم الودان، لا اهتماما بالرسوم القديمة « في الحقيقة لقد جئنا للبحث عن آثار أخرى.. آثار الودان. هل تستطيع أن تدلنا»⁽¹⁶⁾. لقد جاء قابيل برفقة صديقه مسعود إلى هذا المكان بحثا عن لحم الودان وطلبا من أسوف مرافقتهما لاصطياده، علما أن أسوف واقع تحت طائلة مديونية للودان لأنه منحه الحياة حينما تدخل لإبعاد شبح الموت عنه وهو معلق على صخرة في سفح الجبل.

وهنا يحدث إرجاع زمني ليروي الراوي لنا على لسان والد أسوف أسطورة الصحراء « كانت الصحراء الجبلية في قديم الزمان في حرب أبدية مع الصحراء الرملية، وكانت آلهة السماء تنزل إلى الأرض مع الأمطار وتفصل بين الرفيقين وتهدي من جذوة العداوة بينهما وما أن تغادر الآلهة ساحة المعركة وتتوقف الأمطار عن الهطول حتى تشتعل الحرب بين العدوين الخالدين. وفي يوم عاقبت الآلهة في سماءاتها العليا وأنزلت العقاب على المتحاربين، جمدت الجبال في " مساك صطفت " وأوقفت تقدم الرمل العنيد في حدود " مساك ملّت " فتحايل الرمل ودخل في روح

الغزلان وتحايلت الجبال من جهتها ودخلت في الودان، فمذ ذلك اليوم أصبح الودان مسكونا بروح الجبال»⁽¹⁷⁾.

وعندما أراد أسوف معرفة لماذا لم يعد الغزال والودان يتحاربان الآن، ضحك الأب وقال « لأن الله أنزل على الأرض بلوى أكبر قاتلت الاثنين معا. جاء الإنسان، وأصبح للغزلان والودان عدو واحد»⁽¹⁸⁾.

والجبل للغزلان مصيدة، والسهل للودان مصيدة، وهذا ما يفسر أن الودان عندما يكون في السهل ويحس بخطر قاتل يهدده، يهرب باتجاه أعالي الجبال أو ينتحر. وهذا ما حدث مع والد أسوف في المرة الأولى قبل أن يصصره في المرة الثانية، والشأن نفسه حصل لأسوف عندما أراد اصطياد الودان، لكن أسوف لم يخن العهد منذ ذلك اليوم، وبلغ الاندماج أقصاه بين أسوف والودان، وحدث تحول في حياة أسوف بعدما عاف اللحم كل اللحوم أصبحت اللحوم تثير تقززه. « واندش كيف كان يستطيع أن يستطعم أكل اللحم. كيف يستطيع المخلوق أن يأكل لحم مخلوق ؟ ما الفرق بين لحم الحيوان ولحم الإنسان؟ من يقدر أن يأكل لحم الودان يقدر أن يأكل لحم الإنسان أيضا. لقد حل الأب في الودان، والودان حل فيه، هو والمرحوم والودان العظيم الآن شيء واحد لن يفصل بينهم شيء»⁽¹⁹⁾.

الآن وقد جاء قابيل المتعطش لحم الودان وإصراره على مرافقة أسوف العارف بمواطن صيده. كيف يتصرف الصبي أسوف ؟ هل يقود قابيل إلى قتل الودان ويحنت عهدا قد قطعه على نفسه، أم يحافظ على العهد وإن كان الثمن حياته هو ؟

في الطريق إلى الصيد وبعد أن انتهى السهل وبدأت مرتفعات مساك صطفت في الظهور وانتهى صفاء الصحراء الرملية، يفتح السرد على الأسطورة مجددا أسطورة الصراع بين الشمس والقمر، « غير أن قسوة الشمس التي تسببت في يباس غابات الرقم وجفاف الآبار وتعاقب موجات التصحر، أجبرتهم على الخضوع لسلطان الشمس والتتكسر للقمر، تردد الحكماء في اختيار القربان المناسب، فاقترح أحد العرافين بأن يكون القربان رأس الجد المقدس: الودان. احتج الزعيم ورفض المشاركة بوليمة دم الودان المقدس، فرد عليه العرافون ما هو القربان إذا لم تكن التضحية بأعلى

درجات القداسة، فخرجت القبيلة بكاملها لإبادة قطعان الودان، لكن المطر لم ينهمر إلا بعد وقت طويل، وبدلاً من يكون رحمة للقبيلة، فقد تدفق السيل وعمت الظلمة واختفت الشمس، حتى صارت القبائل تتوسل إليها أن ترد عليهم نارها، لكن الشمس لم تستجب لاستغاثتهم إلا بعد أن ذبحوا طابورا كاملاً من الصبايا الأبقار. منذ ذلك الوقت عشقوا القمر وكرهوا الشمس»⁽²⁰⁾.

كان أسوف يصلي طوال الرحلة ويدعو الله ألا يأتي بودان في طريقهم، وفي لحظة حدث ما خشي منه، «من خلف صخرة أمامه بالضبط، أطل ودان يرأسه... أشاح بوجهه بسرعة إلى الناحية الأخرى، حمد الله أن قابيل ومسعود لم يلحظا الحيوان العظيم، وكى يوارى ارتباكهم ويشغل اهتمامهما، رفع رأسه إلى أعلى وكبر للصلاة...»⁽²¹⁾.

كان يخشى أن يأتي الودان لتحيته فيقع بين أيدي الوحوش، سيقع بين أيدي الناس الذين لا يأكلون إلا لحوم الغزلان والودان. وعندما أنهى صلاته، اختفى الودان، وفي تلك اللحظة انحنى قابيل فوق فضلات الودان، عبثاً ذهبت محاولات أسوف إقناعه بأنها فضلات ماعز.

يتوقف السرد مرة أخرى ليسلط الضوء على حياة قابيل وقصته مع اللحم التي بدأت مع الرضاعة « مات أبوه قبل ولادته وأمه ماتت متأثرة بفضة أفعى بعد ولادته بأسبوع فاحتضنته خالته التي لاحظت طائر النحس المحلق فوق رأسه، فاستشارت أحد الفقهاء بشأنه فأوصاها بأن تسقيه دم غزال تحميه وتحمي أقاربه من نطفة الشؤم في أحشائه، لكن الخالة وزوجها ماتا من العطش في رحلتها إلى الحمادة، بينما وجدته قافلة عابرة يعلق الدماء والروث من بطن الغزال المبقر، ولم يكن صاحب القافلة آدم ليعلم أن هذا الملاك الصغير سيتسبب في خسارة تجارته كلها، حتى وجده يأكل اللحم النيء والدماء تقطر من أسنانه. ذهب في طلب نصيحة أحد السحرة في كانوا، فقال له الساحر « من فطم على دم الغزال في الصغر، لن يستقيم حتى يشبع من لحم آدم في الكبر»⁽²²⁾. دهش آدم وصاح بالساحر الزنجي « يشبع من لحمي أنا ؟ »⁽²³⁾.

ذهب آدم في رحلة تجارية إلى الأدغال، وهناك مزقته قبائل (يم يم) بالحرايب وأكلت لحمه نيئاً، وهي قبائل معروفة بنهمها للحوم البشر، فلقب قابيل بابن "يم يم"، وهذا اللقب يوحي بمسؤوليته عن قتل أبيه بالتبني آدم.

وحين يأتي قابيل إلى أسوف عند صخرة متخدوش، وبصرّ عليه بضرورة إرشاده إلى مواقع الودان، فيقول له أسوف « لن يشبع ابن آدم إلا التراب ».

كانت الجملة الأخيرة هي التي قادت أسوف إلى حقه، بعد أن استبد الغضب بقابيل. صلب المسيح دافعاً ثمن خطيئة البشرية وصراعاتها الدمية، فصلب أسوف من يديه ورجليه على صخرة متخدوش الكاهن الأعظم، وتركه وحده معلقاً هناك يستعيد حادثة الهاوية القديمة، عندما كان شاباً، دون أن ينتبه إلى قرون الودان المرسومة على الصخرة تطل على أسوف وكأنها مثبتة فوق رأسه تماماً.

لقد فهم قابيل أن أسوف يعنيه مباشرة بقوله « لن يشبع ابن آدم إلا التراب »، فهو قابيل وأبوه آدم بالتبني، وهو الذي لم يشبع من سفك دماء الغزلان في المنطقة بأكملها، قبل أن ينتقل إلى إفاء الودان.

وهنا يقتحم السرد صوت حيوان الغزالة ويتحول إلى راوٍ يروي كيف أنقذ قابيل في صغره عندما كان يصرخ في أحضان امرأة، وكانت الغزلان تعتقد بأن هذا القربان سيفتح عهداً بين الغزلان وابن آدم (الإنسان) وسيحرم عليه دم الغزلان، لأنه أصبح أخاً لهم من الرضاع.

نقول الغزالة مواسية ابنها قبل أن تقدم نفسها قرباناً « القربان سيفتح عهداً بين نسلك وبين ابن آدم، سيحرم عليه دم ابنتك وأبناء أبنائك إلى أبد الآبدين. هذا هو العهد، حصن القربان، وميثاق الدم واللعنة سوف تلاحق من تسول له نفسه أن يخون رباط الدم »⁽²⁴⁾.

وكان ثمن هذه التضحية أن أباد قابيل عندما كبر جميع قطعان الغزال في منطقة الحمادة كلها. هكذا، تكون وظيفة الراوي هنا تشعرنا بثنائية حادة بين حيوانات تعي ولكنها خرساء لا تتكلم، وحيوانات أخرى ناطقة ولكنها لا تعي ولا تحفظ ميثاقاً.

ويزداد ابن آدم دموية باستخدام الحيوانات التكنولوجية (سيارة، طائرة...) ويظهر السرد ثنائية جديدة بين الحيوانات الطبيعية (غزلان، ودان...) وبين الحيوانات التكنولوجية التي سهلت للإنسان إبادة كل الحيوانات. فمن قبل، كان قابيل يصطاد غزالة واحدة في اليوم، أما الآن فقد أصبح يصطاد قطيعا بأكمله، خصوصا مع ظهور الشخصية الرابعة التي كانت تتجه إلى منخدوس ولم تذهب إليه، وهو الضابط الأمريكي (جون باركر) الذي درس في الجامعة الفلسفات الهندية والصينية كالبودية والطاوية ثم أضاف إليها التصوف الإسلامي، وكان قد قرأ في أحد الكتب عن مذهب التصوف في شمال إفريقيا، وقرأ عن أسطورة لحم الودان، فكان لا يتردد في استخدام تقنيات حديثة لمهاجمة عزلة حيوانات الصحراء. إلا أن هذه الشخصية سرعان ما تتراجع من مساحة السرد مثلها مثل شخصية المؤرخ الايطالي ليظهر الاستقطاب بين أسوف وقابيل، بين البدوي الساحر المسالم والقاتل قابيل، الذي يعتقد أن الطبيعة خلقت كي تخدمه ولكي يستغلها وبفنيها، وحتى جون باركر الذي يمدد بالوسائل الحديثة التي تمكنه من صيد الغزلان وإفنائها ينقلب ضده « أنت لا تحب الصحراء... أنت يا قابيل تأكل الغلة وتسب الملة، والصحراء لم تطهرك لأنك لم تعشقها »⁽²⁵⁾. ولكن جون هذا لا يلبث أن يصطحب قابيل في رحلة الموت والفناء.

كانت مقولة أسوف « لن يشبع ابن آدم إلا التراب » تورية تحمل معنيين: يشير المعنى الأول - وهو الذي قصده أسوف- إلى ابن آدم، أي الإنسان عموما الطالب دوما للمزيد وغير المقتنع، إنه لا يقتنع ويبقى يلهث إلى أن يموت. أما المعنى الثاني الذي فهمه قابيل، فهو أن أسوف يقصده هو، فهو قابيل القاتل، والذي سردوا الأساطير عن نهمه وحبه للحم، فقد قال له الدرويش بلغة غامضة « في فم هذا المخلوق دودة تجعله يأكل نفسه إذا لم يجد لحما يأكله »⁽²⁶⁾. وأبوه الرجل الذي تنباه في صغره ونهشته قبائل "يم" آكلة اللحوم في إحدى رحلاته التجارية، نسب قابيل إلى أبيه بالتبني آدم.

وإذا ربطنا بين نهاية الرواية والتقديم الذي استهل به الكوني روايته، وهو تقديم مأخوذ من العهد القديم يتحدث عن جريمة قابيل الأول في سفك دماء ذوي القربى،

يتضح جليا توظيف الأسطورة. لقد رضع قابيل الجديد، مثله مثل قابيل الأول - حسب ما تذهب إليه بعض المصادر - من دم غزالة فرد جميل أخوتها بالرضاعة بقتل كل ما في الحمادة من غزالان.

وهذه الجريمة مماثلة لجريمة قابيل الأول، فبعد أن أهبط آدم (عليه السلام) من الجنة وسكن الأرض يتعرض الكتاب المقدس لقضية قابيل (قايين في الكتاب المقدس) وقتله أخيه هابيل، وتتشابه قصة مقتل هابيل على يد أخيه قابيل في الكتابين تشابها متطابقا، حيث قدم كل من الأخوين قربانا لله، فقبله من هابيل ولم يتقبله من قابيل، ولم يوضح أي من الكتابين سبب تقبل قربان أحد الأخوين دون الآخر، وإن كان المفهوم من خلال النص أن الموضوع يتعلق بأن هابيل كان أكثر صلاحا من أخيه.

فاغتاظ قابيل جدا، وكلم قابيل هابيل أخاه « وحدث أن كانا في الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله، فقال الرب: قايين أين هابيل أخوك ؟ فقال لا أعلم، أحارس أنا لأخي. فقال: ماذا فعلت ؟ صوت دم أخيك صارخ إلي من الأرض، فالآن حتى الأرض التي فتحت فاهها لتقبل دم أخيك من يدك، حتى علمت الأرض لا تعود تعطيك قوتها، تائها هاربا تكون في الأرض »⁽²⁷⁾.

ولا يكتفي الرب بهذا العقاب، بل حرم على الناس قتل قابيل حتى يظل طريدا معذبا « فقال قايين عقوبتي أعظم من أن تحتمل، ها أنت اليوم قد طردتني من الأرض، فيكون كل من وجدني يقتلني، فقال له الرب سأعاقب كل من يقتلك بسبعة أضعاف العقوبة التي عاقبتك بها ووسم الرب قايين بعلامة تحظر على من يلقاها اغتياله »⁽²⁸⁾.

ويشير السرد في رواية نزيف الحجر إلى أن قابيل، وبعد أن أوثق رباط أسوف عند صخرة متخذوش في صخرة الكاهن الأعظم والودان المقدس، لم يخطر بباله أن يبقى بدون لحم، وفي تلك الليلة حلم قابيل بودان بعد خروج صديقه مسعود من خيمته « جاءه الودان، على رأسه يقف قرنان هائلان... في ضوء الفئار الخافت رأى تلك العينين: هل همستا له بسر الخلق ؟ هل تحدثتا عن تكون الصحراء والكون ؟ هل قالتا شيئا عن اليوم الآخر؟ هل سردتا رواية خيانتته للغزال ؟ هل وعدتا بالقصاص

؟ تبادل معهما الخطاب والأدوار، غاب فيهما وغابتا فيه، فلم يعرف أين هو ولا من هو، هو الودان والودان هو قابيل «⁽²⁹⁾ .

دعاه الحيوان الخفي إلى رحلة، تاهاً في الصحراء، وشيئاً فشيئاً كانت قدما الودان ترتفعان عن الأرض وتطير به، لكن جوع قابيل للحم كان أكثر من كل الأمراض، تمللت الدودة الشيطانية في أسنانه « فهش رقبة الودان، والتهم قطعة لحم.. غرس أنيابه في رقبتة.. واستمر ينزع اللحم من جسده دون أن يتوقف الودان عن العدو»، وقبل أن يرمي به إلى الهاوية، اكتشف قابيل أنه لم يكن سوى رجل بئس شيعه بعبارة واحدة « لن يشبع ابن آدم إلا التراب »⁽³⁰⁾.

عندما استيقظ من حلمه، عاد إلى صخرة متخندوش برفقة مسعود ليجدا أسوف معلقاً في مكانه على صليب الصخرة أمام الجسد المصلوب على الحجر وفق قابيل وازداد جنونه عندما سمع أسوف الراعي يتمتم بتعويذته « لن يشبع ابن آدم إلا التراب »⁽³¹⁾.

قرع قابيل رأسه وصاح في مسعود « تذكرت، هذا هو الحيوان الذي جاء في تلك الليلة، هذا هو الشيطان الذي رماني في الهاوية، وذهبت محاولات مسعود لثنيه عن قتل أسوف سدى، ضحك قابيل بجنون، وقال ملوحاً بالسكين اللامعة في الفضاء: " لم أعد بحاجة إلى جمالك، لديّ جملي، لديّ ضحيتي، انظر! ألا ترى الودان المعلق هناك ؟ إنه ودان، كيف لم أنتبه إلى ذلك من قبل ؟ »⁽³²⁾.

انحنى فوق رأس الراعي المعلق، أمسك به من لحيته وجرّ على رقبتة السكين بحركة خبيرة خبرة من ذبح كل قطعان الغزلان لم يصرخ أسوف، ولم يعترض.. استجابت الجنيات بالنواح في الكهوف.. ألقى القاتل بالرأس فوق لوح من حجر في واجهة الصخرة، فتحركت شفتا أسوف، وتمتم الرأس المقطوع المفصول عن الرقبة « لا يشبع ابن آدم إلا التراب »⁽³³⁾.

تقاطرت خيوط الدم على اللوح الحجري، كشف الكاهن الأكبر متخندوش الذي كان في ذلك المكان منذ طفولة البشرية، لأول مرة عن نبوءته المنقوشة على اللوح المدمى بحروف (التيفيناغ).

« أنا الكاهن الأكبر متخذوش أنبي الأجيال أن الخلاص سيحيء عندما ينزف الودان المقدس ويسيل الدم من الحجر. تولده المعجزة التي ستغسل اللعنة، تتطهر الأرض ويغمر الصحراء الطوفان »⁽³⁴⁾.

يتقاطع مضمون الرواية مع إحدى السير العربية الدالة على استحالة إفلات القاتل من العقاب، وهذه الحكاية الخرافية أو الأسطورة تتعلق بحادثة قتل الحجاج لسعيد بن جبير.

يروى المسعودي في مروج الذهب سبب ولوع الحجاج بسفك الدماء « ولد الحجاج بن يوسف مشوها لا دبر له، فتقب عن دبره، وأبى أن يقبل ثدي أمه أو غيرها، فأعياهم أمره، فيقال أن الشيطان تصور لهم في صورة الحارث بن كلدة، فقال: ما خبركم ؟ فقالوا: ابن ولد ليوسف من الفارعة وكان اسمها، وقد أبى أن يقبل ثدي أمه أو غيرها، فقال: اذبحوا جديا أسود وأولغوه دمه، فإذا كان في اليوم الثاني فافعلوا به كذلك، فإن كان في اليوم الثالث فاذبحوا تيسا أسود وأولغوه دمه، فإنه يقبل الثدي في اليوم الرابع، فقال: ففعلوا به ذلك، فكان بعد لا يصبر عن سفك الدماء بما كان منه في بدء أمره، هذا وكان الحجاج يخبر عن نفسه أن أكثر لذاته سفك الدماء وارتكاب أمور لا يقدم عليها غيره ولا سبق إليها سواه »⁽³⁵⁾.

والتطابق بين قابيل والحجاج واضح، فقد فطم كلاهما بالدم، فمثما أباد قابيل غزلان الصحراء، أباد الحجاج إخوته في الدين « وأحصي من قتله صبورا سوى من قتل من عساكره وحروبه، فوجد مائة وعشرين ألفا، ومات في حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة، منهن ستة عشرة ألفا مجردة، وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد، ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف ولا من المطر والبرد في الشتاء »⁽³⁶⁾.

وما تعلق بحادثة قتل الحجاج لسعيد بن جبير، تروي كتب التاريخ حكايات تشبه حكاية قتل قابيل لأسوف خصوصا (نطق الرأس المقطوع) من جهة، وجنون القاتل من جهة ثانية « فيقال إن عقل الحجاج التبس يومئذ وجعل يقول قيودنا قيودنا،

فظنوها قيود سعيد بن جببر، فأخذوها من رجليه، قطعوا عليها ساقيه « (37). والأمر نفسه حصل مع قابيل قاتل أسوف.

يروى المسعودي القصة قائلا « لما ظفر الحجاج بسعيد بن جببر وأوصل إليه قال له: ما اسمك؟ قال اسمي سعيد بن جببر، قال: بل شقي بن كسير، قال: أبي كان أعلم باسمي منك، قال: لقد شقيت وشقي أبوك، قال له: الغيب إنما يعلمه غيرك، قال: لأبدلنك بالدنيا نارا تلظى، قال: لو علمت أن ذلك بيدك ما اتخذت إلها غيرك، قال: فما قولك في الخلفاء؟ قال: لست عليهم بوكيل. قال: فاختر أي قتلة تريد أن أقتلك. قال: بل اختر يا شقي لنفسك، فو الله ما تقتلني اليوم بقتلة إلا قتلتك في الآخرة بمثلها، فأمر به الحجاج، فأخرج ليقتل، فلما ولى ضحك، فأمر الحجاج برده، وسأله عن ضحكه، فقال: عجبت من جرأتك على الله وحلم الله عنك، فأمر به فذبح، فلما كبّ لوجهه، قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن الحجاج غير مؤمن بالله، ثم قال: اللهم لا تسلط الحجاج على أحد يقتله من بعدي، فذبح واحتز رأسه « (38).

وتروي بعض الكتب أن رأس سعيد بن جببر نطق بعد فصله عن جسده مرددا شهادة عدم إيمان الحجاج، يذكر ابن خلدون أن الحجاج قال لسعيد: والله لأقتلك، فقال: إني لسعيد سمعتي أمي، فلما ضربت عنقه « هلل رأسه ثلاثا أفصح منها بمرة » (39) ولم يعيش الحجاج بعده إلا خمس عشرة ليلة حتى وقعت في جوفه الأكلة، فمات من ذلك، وإذا كان قابيل قد حلم بأسوف قبل قتله، فإن الحجاج حلم بعد قتل سعيد، ويروى « أن الحجاج إذا نام يرى سعيد بن حبيب منامه، آخذا بمجامع ثوبه يقول: يا عدو الله فيم قتلتني « (40) فينتبه مرعوبا، يقول: « يا قوم، ما لي ولسعيد بن جببر؟ كلما عزمت على النوم أخذ بحلقي » (41).

وبالعودة إلى رواية "تزييف الحجر" يمكننا أن نستكشف بأن الأب الأبدي تكلم وخرج، من صمته، فعبارة الودان المقدس "أنا الكاهن الأكبر متخدوش أنبي الأجيال أن الخلاص سيجي عندما ينزف الودان المقدس، ويسيل الدم من الحجر تولد المعجزة التي ستغسل اللعنة"، هذه العبارة لم تكن تشير إلى الحيوان بل إلى أسوف نفسه لا بد

أن يذبح قربانا لتظهر الصحراء ويسيل دمه على اللوح الحجري. لقد أنقذه في المرة الأولى ليقدّمه قربانا في المرة الثانية، ويبقى بعده منتصباً شامخاً بانتظار دورة تكرارية أخرى يذبح فيها قابيل آخر أسوف آخر على نفس اللوح المحفوظ رمزا لغبطة البدايات.

الهوامش:

- (1) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، المجلد الأول، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، ص.
- (2) عبد الله إبراهيم، الرواية العربية وتعدد المرجعيات الثقافية، مجلة علامات 23، 2005، ص 4 .
- (*) أسوف: اسم مشتق من طبيعة المكان (الفراغ، الصحراء).
- (3) إبراهيم الكوني، نزييف الحجر، دار التنوير للطباعة والنشر، ط 2، 1992، ص 13 .
- (*) الودان أو (الموقلون) أقدم حيوان في الصحراء الكبرى، وهو تيس جبلي انقرض من أوروبا في القرن السابع عشر، انظر الرواية، هامش 8.
- (4) الرواية، ص 13.
- (5) سعيد الغانمي، ملحمة الحدود القصوى (المخيال الصحراوي فيآداب إبراهيم الكوني)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ط 1، 2000، ص 60 .
- (6) الرواية، ص 15.
- (7) الرواية، ص 15.
- (8) مرسيا إلياد، أوجه الأسطورة، ترجمة نهاد خياطة، دار كنعان، 1991، ص 52.
- (9) ينظر سعيد الغانمي، ملحمة الحدود القصوى، ص 284.
- (10) الرواية، ص 57.
- (11) الرواية، ص 70.
- (12) الرواية، ص 88.
- (13) الرواية، ص 48 - 49.
- (14) إبراهيم الكوني، وطن الرؤى السماوية، الدار الجماهيرية، طرابلس، ط 2، 1998، ص 69.
- (15) الرواية، ص 17.
- (16) الرواية، ص 19.
- (17) الرواية، ص 26.
- (18) الرواية، ص 27.
- (19) الرواية، ص 75.
- (20) إبراهيم الكوني، السحرة (رواية في جزئين) ط 1، المؤسسة العربية، 1994، ص 85.
- (21) رواية نزييف الحجر، ص 88.

- (22) الرواية، ص 92.
- (23) الرواية، ص 92.
- (24) الرواية، ص 112.
- (25) الرواية، ص 120.
- (26) الرواية، ص 117.
- (27) العهد القديم / سفر التكوين / الإصحاح الرابع. وانظر مقدمة الرواية.
- (28) ناجح المعموري، الأسطورة والتوراة (قراءة في الخطابات الميثولوجية)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، 2002، ص 25.
- (29) الرواية، ص 138 - 139.
- (30) الرواية، ص 139.
- (31) الرواية، ص 144.
- (32) الرواية، ص 145.
- (33) الرواية، ص 146.
- (34) الرواية، ص 147.
- (35) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، موفم للنشر، الجزائر، ج 3، 1989، ص 153-154.
- (36) المرجع نفسه، ص 203.
- (37) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، المجلد الثالث، ص 65.
- (38) المسعودي، مروج الذهب، ج 3، ص 200 - 201.
- (39) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، المجلد الثالث، ص 65.
- (40) المرجع نفسه، ص 65.
- (41) المسعودي، مروج الذهب، ص 201.